صَفـــوَة

عزة محمد على محمد النوبي - مصر

صَفوَة.. تلك النبتة النقيّة التي نبتت في جوٍّ خالٍ من حنانِ الأب.. تلك الندّية التي تجرّعت الزقّوم من وِحدتها.. الريحانة التي فاحَ أريجَها يعبقُ أي مكان تدوسه قدماها.. الأبيّة التي اعتادت البُكاء خُفية.. حتى لا تنظرها العيون فتنال شفقة.. صفوة تبكي ولكن.. مِن الفرح!..

تحتضن سُفيان وتبتسم مُقلتاها، تنطقانِ بحنان.. ما أجمل الصبر!.. سُفيان يَدمعُ.. يُقبِل يَدا أمّه وجبين زَوجَه المُندّى بقطراتِ العرق.. كانت على شفا الموتِ لولا رحمةُ الله!.. الهدوءُ المُطمَئِنُ يعمُّ المكان.. تتذكر صفوة سنواتها الأُول.. يومَ قالت لخالتها.. أتدرين يا خالة أمنيتي؟!.. أن أكبر.. أتزوّج.. أرى أولادي وأولادِهِم.. ثمَّ عمّها الخجل فصَمَتت.. ترجعُ بذاكرتها زَمَنًا.. الأيامُ كالحة.. البردُ قارصُ هذا الشتاء.. الأمطار تتجمّع أمام عتبة البيتِ ثم تدخل مهرولة دون استئذان.. تُلاحقها صفوة بقطعة قماش.. تنزحها وتُلقي بها خارج البيت.. وداخلهُ يقبع الأب عاقد الساعدين.. يضربهُ البردُ فينكمِش.. يتحاشى تلك الرعشات بتلك المسبَّات للمطر والصقيع والبرد الذي ينخرُ بالعِظام!!...

صفوة تنتهي من تنظيف أرضية البيت.. تُجففها من المياه، حزينة على تلك الحياة التي تحياها..كان بوسعها العَيشَ في مكان أفضل لولا شُح الوالد الخُلُقي والمادّي...

تنبت في بيئة بسيطة.. تتغشّاها رحمة الأم وطيبتها.. وقلّة حيلتها!.. تفتقد حنان الأب بسبب ذاك اللسانُ السَليط.. هي الإبنة الوسطى لسبعة أشقّاء.. الكل تزوّج وبقيت لترعَ والديها.. لقد تخرّجت للتو من دراستها الفنية الصناعية.. لابد أن تبحث عن عمل.. فكيف تُلبّي احتياجاتها؟.. وكيف تطلب من أبيها بينما يتعذّر دائمًا بعدم توفّر النقود؟!!.

عملت بأماكن متنوعة.. ما بين عاملة في شركة للصناعات الغذائية فأُصيبَت أصابع قدميها بالأمراضِ الفطرية.. وبائعة في أحدِ المَحال لتُصاب ساقيها بالدوالي نتيجة الوقوف لساعاتٍ طوال.. لينتهِ بها المطاف في مصنع للملابس الجاهزة ولكن!... العمَل مُجهد وشاق.. تتألم وتتوجّع من ألم أصاب ظهرها وساعدها جراء تعبئة وتقفيل الأجولة ولكن!.. أن تسأل والدها قرشًا للعلاج بات أشّق وأوجَع!..

صفوة تذهب إلى العمل برفقة صديقتها وإبنة الجيران.. "رَحيق" اسمًا ومعنى، تحمل كل معاني الرحمة والتواضع وحُب الخير للجميع.. كلتاهما أكلَ الزمَنُ مِنهُن وشرِب.. صفوة ترافق رفيقتها لا ينبثن ببنت شَفة.. فكلتاهما جائعة إلى النوم!.. يشقّان طريقهما سَيرًا.. يضربانِ الأرضَ ضربةً هنيهة بقدمهما الصغير المُتعَب.. ومن خلفِهِنَّ تأتي السيارات مُسرعة.. تنثرُ عليهنَّ بقايا الطينِ والأتربة بعد أن اختلطا بمياهِ الأمطار الهاطلة فصارت رُوبة.. تجذبُ صفوة يد رحيق لتبعدها عن مرمى السيارات.. تستجيبُ رحيق بلُطفٍ مُتمتمة بأذكارِ الصباحِ.. وفجأة.. تصرخ صفوة!!!

رفيقتها مُلقاة لا تستجيب لندائاتِها.. ليس فيها نقطة دماء ظاهرة.. لكنَّها فاقدة للوعي..

سيارة مُسرعة تلك التي دهست رحيق فألقتها على بُعدِ أمتارٍ من رفيقتها التي تصرخُ باكية.. لا تدرْ ماذا تفعل!.. الجمعُ مُحتبئ من البرد.. النجدَة تطلبها.. مِمَّن؟!.. ودون وعي.. تعبرُ الشارع أمام السيارات ذهابًا وإيابًا.. ثُمَّ يجتمع الجيران.. يحتضنها واحدهم مُردفًا.. اطمئِنِ.. اطمئِنِ.. رفيقتك بخير.. لكنَّها لا.. مكثت بالعناية المُركّزة بالمشفى عشرة ليال.. وواحد وعاشرها لفظت أنفاسَها الأخيرة.. كانت تُعاني نزيفًا داخليًا مروّعًا.. وكسورٍ بالجُمجُمة أودتُ بحياتِها.. وبقيت صفوة تُعاني الأحلامَ المُفزعة عِدة أشهر!!..

تركت صفوة المصنع وراحت تعمل في آخر لأدواتِ التجميل.. الآن ليست بحاجة إلى مساعدات مادّية من أحد.. باتت تكفي حاجتها وتفيضُ على غيرِها بفضلِ الله وَحدَهُ..

بلغت الخامسة والعشرون وتزوجت رفيقاتها بينما هي لا.. يتقدم لِخطبتها الكثير ولكن لا تكتمل المُقدِّمة.. في قلبِ أمّها ساورتها الشكوك.. فلربّما سحرها أحدهم!.. راحت تسألها الذهاب إلى أحد الشيوخ وَمُطالعتهم.. وصفوة ترفض وبشدّة..

هُناك إعلان وظائف يطلب المدارس الفنية الصناعية.. أخبرها أحد الأقارب.. أسرعت بتقديم الأوراق المطلوبة.. إنّه اليوم الأخير للتقديم.. مَضت شهور ثلاثة.. ساعٍ للبريد يسأل عن رجل يقطن بالمكان يُدعى "صفّي الدين".. يستقبله شقيق صفوة قائلًا.. أو ربّما صفوة وهناك خطأ!!.. أرنيه وعلى مسئوليتي.. يَفضُّ المظروفَ.. ومُتبسّمًا..

إنّها صفوة!!.. سُبحان الخالق.. الوظيفة قُسِمَت لها.. صارت بين يومٍ وليلة تعمل بالقطاعِ الحكومّي.. خمس ساعات.. راتب مقبول يوافق العمل.. يا لكَ من إلهٍ عظيم الشأنِ والمَدد...

صفوة بلغت التاسعة والعشرون.. تدعو الله سرًا وتتصدق من أجلِ أن يرزقها الله برفيقها الصالح.. لقد جالست إحداهن يومَ كانت تنتظر دورها لدى طبيب الأسنان بالمشفى التأميني فأخبرتها بذلك.. ومازالت تداوم حتى يسعفها الله بالإجابة.. رئيسها بالعمل يطلبها.. فلتكتبي هذا الخطاب.. كان يجلس معه شاب وسيم.. ثلاثيني العُمر.. انتهت صفوة من العمل.. وفي اليوم التالي يُخبرها رئيسها.. ما رأيك في فُلان؟.. أخبرته أنّها لم ترْهُ.. أخبرها انّه سيأت وذاك إلى بيتِ أبيها اليومَ عصرًا.. صفوة تستأذن وتعود للمنزل.. أخبرت أبيها ما حدث.. حاولت جاهدة تنظيف البيت.. البيتِ خالٍ من الأثاث الأنيق، والحوائط مُهدّمة.. ضوءِ المصابيح ضعيف والبيت ركيك المستوى.. تحاولُ صفوة جاهدة إعادة ترتيب ما تستطع.. ابتاعت زجاجة للمشروبات الغازية.. بعض الحلويات الشرقية وبعض الفاكهة..

كانت تتمنّى لو ابتاعت طعامًا للغداء، لكن الوقت لا يسعفها..

قدِمَ القادمون.. استقبلهم الأب.. خرجت صفوة تحمل صينية عليها كاسات المياه الغازية وأطباق الحلوى.. نظرت "عِزالدين" المهندس نظرة خاطفة.. خرجت على عَجَل.. تحدَّث وأفاض.. قدّم المَهرَ مُغاليًا، لكنّهُ أقل من المُتعارف عليه ببلدتهم.. فيُجيبهُ الوالد: نحن نشتر رجلًا لا ذهبٍ ولا مال.. طالب بعقدِ القران مع خاتم الخِطبة.. وتم تحديد الفرح بعد شهرين من الآن..

تعجّب المَعارِف من سُرعة إتمام الزيجة.. لم تنظره صفوة جيدًا لكنها لاقت القبول لديه، وكذلك هو.. أخبرها رئيسِها: ألم ترين تلك الإعاقة بيده؟ ألم تنظرينها في مُقلتِه؟!.. كان جوابها نعم، لم أنظرها!!.. ولأنَّ قدرَ الله تام لا رادعَ له.. تمّت الزيجة..

عزالدين يُطالب صفوة البقاء في خدمة أبويه وإخوتهِ من اليوم الأول لزفافها.. لقد بدأت في تنظيف المنزل وسط دهشة إخوتها بعدما أخبرتهم هاتفيًا... ومن هُنا بدأت التنازلات!!!

لم تعتد صفوة على أعمالِ الحقل وخدمة البهائم!.. لم تعتدْ حلب الشاة وجزِّ الحشائش.. لم تألفْ رؤية الأوساخ بالمكان دون أن ترفعها وتنظِّف.. هكذا هي.. كانت تفعل ما تفعل.. تتنازل من أجلِ العيشَ بسعادة، ولكن!.. يوم سُعداء يعقبه عشر في خِناقٍ وكَدَر.. ويزداد إن أخبرتهُ أنَّها تعاني إرهاقا ولا تستطع الخدمة

اليوم!!

ووسط زوبعةِ الأحداث يبشّرها الله بروحٍ داخل الأحشاء.. كم كانت السعادة في عينِ عزالدين ووالدَهُ الرؤوف.. والأمُ الجافية.. ربّما عانت الحِرمان في طفولتها فحُرِمَت الرَحمَة!، لكنَّها تحنو على أولادها ذكور وإناث!!.. مُتناقضة هي!!...

عانت صفوة كثيرًا.. عزالدين لا يبتعْ طعامًا أو شرابًا، بل ويُرغمها تناوله مع والديه.. فتمتنع حفظًا لكرامتِها.. ويستقطِع نِصف راتبها بحجَّةِ الدَين.. لقد باعها قلادتها ومشغولاتها الذهبية غير آبه..

وجاء سُفيان بعد تسعة أشهر بالتمام وسط فرحةِ الجميع.. زادَت الخلافات.. كيف ترعى طفلها وتذهب إلى عملِها وتخدم بيتها وبيتِ والديه؟!.. إذن البيت أولى.. نطق بها عزالدين، فعاجلته: وكيف نأكل ونشرب وراتبك كاملًا ليسَ لنا؟!.. لاطمها.. صفعها وألقى عليها المياه الساخنة!.. هَرَبَت بعيدًا تتوجّع.. تستدن من شقيقتها للعلاج وشراء مُستلزماتِ البيت.. قررت الشكوى للأهل.. تركت بيتها حزينة.. غَضِبَة.. لم يأتْ أحدَهم بحلٍ رادع.. عادت صفوة بمساعدةِ العم.. تعهّد عِزّ بعدمِ الضرب ولكن!.. لم يفْ بالوعدِ وبقي الحال.. تسعد صفوة يوم.. وتبكي أيام!..

وبعد عام جديد، رَبُّ القدر يبشرها.. روحُ جديدة بالأحشاء.. إغتاظت الأم.. وعزالدين يُلقى بالسبب على صفوة.. وكأن في ذلك عار وتُهمَة!!...

المسئولية تزدادُ.. صفوة تحاولُ التغاضي عن المُشكلاتُ فيُطالبها بالكثير.. يفتخرُ بشهادتِه ويَهزَءُ منها.. وضَعَت صَغيرها.. ولِيَنَلَ رضا والدته صار يضربها ويُطالبها بالرحيل.. يبدو أنّه يُعاني مرضًا نفسيًا.. حقًا لقد كان.. رأت الأوراق بينما تنظف بعض الرفوف.. كاذب هو!!.. هل الزواج باطلًا إذن؟؟؟

لم تعرف جواب، لكنَّها بقيت للآن.. تعسة حينًا.. فرِحة حين.. يَسبّها ووالديها.. يَكره شقيقتها ويتغزّل فيها!.. يَكره أخيها ويَصِمهُ بالعجزِ والفقر.. ويزداد الخِصام.. الحياة تبدو غير مُؤتمَنة معه!!..

سنواتِ عِجاف تمر، ويكبرا الصغيران.. سُفيان أكمل دراسته الجامعية.. مُعلِّم للُغة الضادية.. راقت له تلميذته.. تزوّجها.. صفوة فرحة رغم الحُزن الذي في مُقلتيها.. والجابرُ يَجبُرُهُم.. قاطنٌ في الأحشاء.. الزوجة تسقط ارضًا فتعاني نزيفًا، والطبيب يُنذر.. الحالة خطرة.. فلتبق على وضعية الظهر طوال التِسعة!.. مَن سيخدمها؟ عز يتساءل.. تُجيب صفوة.. أمّك ابن كبدي.. ينتهي الخطر.. والطفل يبغي رؤية العالم.. الزوجة تُعاني فقر الدم.. تنزف داخل غرفة العمليات.. يستغث سُفيان بزملاءِ العمل.. يُسعفنَهُ.. الأم تبتهل.. مظلومة طوال العُمر فاقبل زلّتي.. انجدها طفلتي.. أسعفنا بالقبول.. ربّي ربّي..

الخطر مازال قائم لكنَّ الطفل قدِم.. طفلتان.. ما أجمَلَهُن.. باركهنَّ يا الله.. فلتسمّهن أمّي.. مريم.. سارة.. نطقت على عَجَل.. تحتضن وليدها وتبكِ.. سُفيان يَبكِ.. زوجته تُعاني.. نزيفًا لا يتوقّف!.. بحاجة إلى دماء.. فقدان للوعي تام..

ثلاثةُ أشهر.. الأملُ يَضمَحل.. الجدّة تخدمُ الحفيدتين.. كبرتا.. والحياة تدب في روح الزوجة.. يبك سُفيان.. لقد تصدّق وصام.. وصلّى بالليل والناس نيام.. دعا وبكى.. رفعَ يَداهُ.. فما خابَ مَن ارتجى...

وتحت ويلات الشكوك تعيشُ صفوة.. كبُرت وكبُر الحُزنِ بقلبِها.. مازالت تُعاني قذارة لسان زوجِها وسوء ظنونهِ.. وحمزاها الصغيرُ يُسعِدَها.. حفل التخرّج غدًا.. تزغرط وتدمع.. الله عوّضني بِكُما ويُقبَلها صغيرها، ويَخرجُ للتنزّه ورفيقَهُ.. يُقررا النزول إلى المياه.. دوامةُ المياه تسحبَه.. يَمدها يَدهُ ليُنجدَهُ صَديقه.. صَديقه يخشى صَديقَهُ يَسحبَهُ!.. وليسَ هُناك مَن يُسعفه.. يصلُ الخبر.. غَرقَ حمزه!!!..

قلبِ الأم لا يحتمل.. تسقط فاقدة للوعي.. نزيف بالمخِ تعاني.. تمكثُ بالمشفى شهران، يرعاها سفيانها وزوجه.. الحالة تسوء.. الطفلتان تنطقان: دِدّده.. دِدَّده!!.. كانتا رَيحانتاها هُنَّ.. أخذَهُن الولد لعلَّ في زيارتهنَّ فَرَج.. شعرت صفوة بنفَسِهِن.. تنفسّت وتنفّس الصعداءَ سُفيان.. تفيقُ الأم.. يضمّها الإبن.. تتذكر صفوة حادث صغيرها فتبكِ.. لله ما أعطى ولله ما أخذ أُمّي.. استعنِ بالله ولا تقنطْي.. تهدأ الأم واللسان يلهج: كبَدي.. كبَدي.. نار بصدري.. تحتطانها الصغيرتان.. دِدَّده.. تضمَّهما صفوة بحنان.. الله يجعل فيكنَّ العَوَض..

لم يستطعْ عزالدين احتمالِ مَرضَها، تزوّج من زميلته الجميلة بالعمل.. ظَهرَت أخلاقَها الدنيئة بعد الزواج، وكالت لَهُ السِباب.. طلباتِها لا تنقطع.. عليه أن يوفّر احتياجاتها ووالدتها رغمَ أنفه.. لقد سَحبت نقودهُ تدريجيًا.. صارَ يَلعنُ اليومَ الذي

جمَعَها بهِ.. يَرغبُ تطليقَها ولكن، عليه دفع مَبلغ من المال ليسَ مَعه!.. ما العمل؟! يعيشُ جَحيم!!.. يَرغبُ العودة إلى صفوتِه.. عرِف الفارق وأنكر فِعالِه.. صفوة قلبَها لا يحتمل.. أخبرها الطبيب فأخبرته.. فلتبقْ مع زوجتك وأنا راضيةً مَرضية.. مع ولدي أعِش..

صفوة تُغنّي لريحانتاها وتُضاحِكهُن: سِجّييفة بابا اييجه... سِجّييفه بابا اييجه...

تحتويها الزوجة التي تفتقد حنان الأم.. لقد عوّضها اللهُ.. صفوة تضحكُ مِن قلبِها.. لقد انتقمَ اللهُ لها وأغدقها نِعم.. سُبحانه جابر القلوبِ بعدَ كسرِها...